قراءات في ظاهرة الهجرة الحضرية ومشكلات المدينة:

ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس!

د. وليد أحمد السيد *

■ لا تزال موجة الهجرة من الريف للمدينة تتصاعد وتيرتها، حيث يهاجر أكثر من 20 مليون فرد للمدينة سنويا وهو رقم هائل غير مسبوق في التاريخ البشري كله. وقد قفزت أعداد السكان بالمدن العالمية من 200 مليون في العام 1950 إلى مليارين في العام 1990، ويتوقع أن يصل هذا العدد إلى 3 مليارات في العام 2025. وهناك مع نهاية القرن العشرين 20 مدينة ضخمة تحوي أكثر من 10 ملايين نسمة. كما ان 19 مدينة من أصل الـ25 مدينة ضخمة تنتمي للعالم الثالث. وهناك أكثر من 60 مدينة في العالم يبلغ تعداد سكانها أكثر من 4 ملايين نسمة. وسبب موجة النزوح للحضر من الريف يعود للتطور الصناعي الذي غزا العالم الحديث بالإضافة إلى تدهور وضع الأراضي الريفية وتقلصها وأحيانا الظروف المتعلقة بتلوث البيئة مما يشجع الهجرة من الريف للمدينة. وتشهد قارة أفريقيا أكبر موجة هجرة للمدينة من باقي قارات العالم الحديث حيث تسود في المدن فرص أفضل للعمل والحياة، بيد أن معظم مدن العالم تعاني نتيجة فائض الهجرة من صراع على الموارد الطبيعية وفرص العمل وضغط على السكن أكثر بكثير مما يمكنها توفيره مقارنة بالمساحة الجغرافية لهذه المدن.

وفي عام 1990 أجرت لجنة الأزمة السكانية بالتعاون مع 130 مؤسسة أبحاث حضرية حول العالم دراسة نشرتها حول أكبر 100 مدينة عالمية لتقييم مستوى الخدمات والرفاه التي تقدمها المدن للمواطنين من خلال معايير منها: السلامة العامة وتكلفة الغذاء والمساحة المتوفرة للسكن ومستوى الخدمات الإسكانية ونقاء الهواء والمواصلات والأمان الاجتماعي. كانت نتيجة الدراسة أن المدن التي سجلت نتيجة «جيد جدا» كانت تقع في شمال أمريكا وأوروبا وأستراليا واليابان. أما المدن التي سجلت نتائج «جيد» فكانت تقريبا في نفس المواقع السابقة بالإضافة إلى بعض مدن شرق أوروبا. أما المدن ذات مستوى المعيشة «المقبول» فكانت مدن جنوب أمريكا الكبيرة والصين وكوريا وشمال أفريقيا. أما الدول ذات مستوى المعيشة «السيئ» حيث التزايد المطرد للسكان مقابل الخدمات المتدنية وفرص العمل فكانت في الهند وبيرو والبرازيل والباكستان وأفريقيا. أما مدينة لاغوس فكانت أسوأ المدن في مستوى المعيشة على الإطلاق.

عوامل الطرد والجذب الحضري

في عام 1925 كان هناك أقل من 10 بالمئة من السكان في الدول النامية يعيشون في المدن. بين العام 1950 والعام 1975 استقطبت المدن الحضرية في هذه الدول النامية أكثر من 400 مليون نسمة. وحسب دراسات البنك الدولي فقد نزح للمدن الحضرية في البلدان النامية بين العام 1975 والعام 2000 أكثر من 1000 مليون نسمة، نصفهم من السكان الذين يعيشون في هذه المدن أصلا وذلك بفعل الزيادة الطبيعية العالية وعدد أفراد الأسرة الكبير طبيعيا. أما عوامل الطرد من القرى فهي: سوء استعمال الأرض الزراعية وتدهور أوضاعها وتناقص الأراضي الزراعية الصالحة للزراعة وعدم توزيعها بشكل جيد والجفاف والعواصف والفيضانات ونقص الغابات والأخشاب القابلة للتزويد بالحطب ونقص المياه الصحية ونقص الخدمات والموارد الحديثة وزيادة التعداد السكاني للقرى وتزايد الأعباء الاجتماعية التقليدية والمنازعات العقدية الدينية وتدهور الاقتصاد المحلي للإقليم الريفي والحروب المحلية القبلية.

أما عوامل الجذب فهي: توفر فرص العمل والدخول العالية والرفاه الحضري وأضواء المدينة والمدنية والانضمام للنازحين من القرية إلى المدينة من المعارف والأقارب والهرب من ضغوطات المعيشة وضنك العادات والتقاليد التقليدية وتوفر الرعاية الصحية الجيدة والتعليم.

لكن الهجرة للمدينة لا توفر الحل السريع والرفاه العاجل فكثير من القادمين للمدينة يعيشون في أوضاع معيشية وصحية متدنية نظرا لاكتظاظ هذه المدن وعدم قدرتها على استيعاب أعداد المهاجرين مما يتطلب رحلة كفاح مريرة للحصول على الحد الأدنى من متطلبات الرفاه التي ينشدها المهاجرون. وعدا عن ذلك يصطدم هؤلاء بأمراض المدينة الحديثة التي لم يعهدوها من قبل في القرى مثل الكآبة والقلق على المستقبل وغياب الأمان الاجتماعي وانتشار الجريمة والبطالة وانتشار التخريب والعبث بالممتلكات وعصابات الشباب وارتفاع مستوى المعيشة والجرائم الأخلاقية كتجارة الأطفال وانتشار التجارة الجنسية وبائعات الهوى وعمالة الأطفال واستغلالهم.

طبائع المدن ومواردها الطبيعية

المدن «الطفيلية» هو مصطلح يطلق عموما على المدينة الحديثة نظرا لطبيعة التجمعات الحضرية التي تعتمد على غيرها لدوامها واستمرارها مثل الغابات المجاورة والمدنية والبحار وثرواتها والأراضي الزراعية المجاورة التي تلتهمها بمرور الزمن. وهناك عوامل صناعية تعتمد عليها المدينة في وجودها كمحطات الطاقة والمصانع والتي تساهم في تدمير البيئة الطبيعية أكثر فأكثر. فالمدينة تستهلك موارد الطاقة الطبيعية وهي منتج رهيب للمخلفات من الصناعة والمخلفات الأخرى. وتدمير المدن للغابات الطبيعية والأراضي الزراعية مستمر. فمعدل استهلاك الفرد السنوي من ورق الكتابة بالكيلوغرام يبلغ 268 في امريكا يليه 124 للفرد في بريطانيا ثم 115 في فرنسا و11 كيلوغراما للفرد سنويا في ثايلاند ثم 10 في مصر ثم 2 في الهند. وتستهلك مدن العالم وتحتاج إلى كميات هائلة من الماء لاحتياجات الفرد للشرب والاستحمام ووظائف الحياة والترفيه. ويتمتع مواطنو شمال أمريكا بحظوة كبيرة عن نظرائهم وبخاصة مواطنو العالم الثالث إذ يحصل الفرد الواحد على معدل 6400 لتر من الماء يوميا ما بين الشرب والري ومتطلبات التصنيع والصناعة مقابل 3 إلى 6 لترات يوميا وبأحسن الأحوال في العالم الثالث.

جانب من مدينة متليلة بالصحراء الجزائرية

وقد كانت احتياجات المدن من الغذاء على الدوام مطلبا اساسيا بتوفيره بالكلفة والسعر الأرخص، وهذا مطلب تاريخي منذ مدن الرومان ولغاية اليوم. وتوفير الغذاء الرخيص يعني استقدامه وجلبه من أي مكان في العالم حتى لو كان في النصف الآخر للكرة الأرضية. أما توفير اللحوم لسكان المدن فيعني توفير الحيوانات بكميات كبيرة في مزارع خاصة لها وظيفة وحيدة هي تربية الحيوانات لذبحها للاستهلاك البشري مما يعني تطوير اساليب العناية البيطرية واستعمال المواد الكيماوية حديثا لتنميتها بسرعة. لكن فضلات ومخلفات الكيماويات المستعملة في العناية البيطرية ورعاية الحيوانات وتربيتها تظل محل قلق للكثيرين.

ويقوم سكان التجمعات الحضرية والمدن في العالم المتطور بانفاق 15 إلى 20 بالمئة من دخلهم على الغذاء، لكن الخبراء يعتقدون أن البحث عن الغذاء الرخيص لتوفيره للمستهلك لا يمثل بحال الكلفة الفعلية والخسارة التي تتكبدها صناعة الغذاء وتوفيره للمستهلك على المدى البعيد، حيث أن مشكلات انجراف التربة الزراعية والضرر الذي يتكبده التوازن البيئي الريفي بواسطة الزراعة الحديثة هي كلفة إضافية مبطنة غير منظورة.

أما الفضلات التي تطرحها المدينة فهي مشكلة كبيرة بحد ذاتها، وبقدر زيادة الرفاه الاجتماعي للمدن بقدر ما تزيد أطنان الفضلات التي تطرحها يوميا. وتتصدر العالم قاطبة مدينة نيويورك في طرح أكبر كمية فضلات يوميا حيث يطرح كل فرد 1.6 كيلوغرام يوميا من القمامة، وتتخلص مدينة نيويورك يوميا من 24 ألف طن من القمامة. وفي المقابل يطرح الأوروبيون عموما نصف ما يطرحه الأمريكان رغم أن كمية القمامة المطروحة تظل عالية. وفي بعض المدن مثل كالكتا بالهند يتم حل بعض مشكلة القمامة حيث يعتاش بعض الآدميين على الطعام المتوفر في القمامة!

أما مشكلة السوائل الكيماوية السامة التي تطرحها المدينة يوميا فهي تجسيد للمدن الصناعية المعاصرة ومظاهر المدنية. فالكميات الهائلة التي تطرحها المدن من مخلفات التنظيف الصناعية ومخلفات الزيوت ومساحيق التنظيف والأسمدة الكيماوية ومبيدات الحشرات تمر جميعا في شبكات الصرف الصحي مما يهدد العيش الصحي لسكان المدن ويمتد أثره للتلوث البيئي وتلوث الغذاء كما يهدد الثروة السمكية والكائنات البحرية. أما التلوث الأكبر في المدن اليوم فتقوده السيارة وهو تلوث صوتي وتلوث بيئي (في العام 1988 ضخت السيارات في العالم التي يبلغ مجموعها حوالي 400 مليون سيارة أكثر من 500 مليون طن من الكربون في الجو). ومشكلة السيارة في المدينة الحديثة تتعدى ما سببته من تشوه وتغير كبير على نسيج المدينة الفيزيائي والاجتماعي ليمتد أثرها كخطر على الصحة حيث يشكل الجلوس خلف عجلة القيادة بمثابة الإدمان مما يقلل من الرياضة الجسدية والمشي اليومي المفيد لحرق بضع مئات من السعرات الحرارية والكولسترول الضرورية لجسم سليم وصحة جيدة. وفضلا عن ذلك تقود حوادث السيارات في بعض مدن العالم الثالث غيرها من عوامل القتل والوفاة بأرقام فلكية مذهلة (ففي العام 1985 بلغت أعداد الوفيات نتيجة حوادث السيارات في العالم أكثر من ربع مليون شخص!). وتستهلك الولايات المتحدة في صناعة السيارات خمس الحديد المتوفر بأمريكا وثلثي المطاط. ويخصص تقريبا ثلث الارض في المدينة لطرق السيارات المعبدة، ففي الولايات المتحدة الأمريكية يحتل كل كيلومتر من الطرق السريعة حوالي 6 هكتارات من الأرض. أما الطاقة التي تستهلكها المدن لإنارتها ليلا للمنازل والمناطق التجارية والترفيهية فلم تكن ممكنة لولا محطات الطاقة الهائلة وتوفر النفط بأسعار زهيدة. لكن هذه المدن الضخمة يمكن أن تتوقف الحياة بها في حال توقفت مصادر الطاقة الهائلة هذه.

تلوث الهواء هو من أخطر مظاهر العيش بالمدينة حيث يعيش أكثر من بليون نسمة من الجنس البشري، أي خمس البشر، في مدن هواؤها غير صالح للتنفس. ومصادر هذا التلوث متعددة منها الفحم المنزلي المحترق المستعمل في مناطق واسعة من شرق اوروبا وآسيا. وقبل قانون الهواء النقي في العام 1955 الذي طبقته لندن مات أكثر من 4000 شخص عام 1952. وهناك مصادر أخرى للتلوث منها المصانع والمصافي ومعامل التكرير ومحطات توليد الطاقة والطائرات ووسائل النقل الحديثة التي تتسبب بأمراض العصر المزمنة مثل الربو. وهناك بعض المدن العالمية الضخمة، مثل مدن الصين حيث يتم حرق 900 مليون طن من الفحم يوميا، تختفي خلف سحب الدخان الكثيفة، التي يطلق عليها «التنين الأصفر»، وبحيث تتعذر رؤيتها بالاقمار الصناعية.

وفي هنغاريا تعزو الجهات الصحية موت كل واحد من 17 حالة إلى تلوث الهواء. أما في بومباي فالوضع أكثر سوءا حيث أن استنشاق الهواء في شوارع المدينة يعادل تدخين 10 سجائر يوميا. أما في بكين بالصين فإن امراض الجهاز التنفسي شائعة لدرجة تسميتها «سعال بكين». وتعد مدينة مكسيكو أسوأ مدينة من حيث الهواء الملوث على وجه الأرض، وهي أسوأ أربع مرات من مدينة لوس أنجلوس وأسوأ ست مرات من الحد المسموح به بحسب معايير منظمة الصحة العالمية. وسبب ذلك هو موقع مدينة مكسيكو الذي لا يسمح للهواء الملوث بالتجدد حيث تقع على «صحن» مرتفع محاط بالجبال. أما مستوى الاوزون فيتجاوز مستويات المكسيك المترهلة أصلا ويكون الفصل الجاف أسوأها. ويعزى 90 بالمئة من مشاكل الجهاز التنفسي للهواء الفاسد الملوث بالمدينة.

ويؤثر تلوث الهواء كذلك على النباتات والغابات المجاورة للمدينة، حيث لوحظت آثار ذلك على الغابات بألمانيا في بداية الثمانينيات. أما اليوم فتشير إحصائيات الحكومات الأوروبية إلى أن أكثر من 50 بالمئة من الدمار الذي يصيب الغابات الطبيعية مرده تلوث الهواء ومما تخلفه المصانع من مزيج كيميائي قاتل ينتشر بأجواء المدن وما حولها. ويسبب تلوث الهواء إضعاف قدرة النباتات على مكافحة الأمراض التي تصيبها مما يزيد من قدرة الطفيليات والعفن الذي يصيبها. وتقدر قيمة الخسائر في الأخشاب نتيجة لذلك في أوروبا سنويا بأكثر من 29 بليون دولار. أما في أوروبا الشرقية وحدها فتقدر قيمة الخسائر في محاصيل الأخشاب اللازمة للصناعات الورقية وغيرها من أعمال النجارة أكثر من 70 مليون متر مكعب، مقارنة بنظيرتها في بقية أوروبا والتي تقدر بحوالي 48 مليون متر مكعب.

ونتيجة لثراء المجتمعات الحضرية وتنامي المدن العالمية الضخمة بما تتطلبه من حرق مصادر الطاقة والوقود لتسيير حياة سكانها اليومية وتصاعد الغازات الضارة في الجو وتلوث الهواء وانتاج الكميات الهائلة يوميا من ثاني اكسيد الكربون والميثان وثاني اكسيد النيتروجين وغيرها فقد تسبب كل ذلك في تكون ظاهرة «التسخين العالمي» أو (Global Warming) والتي تجر العالم نحو هاوية سحيقة، حيث تحتبس الإشعاع الحراري في طبقات الجو العليا مما يرفع من درجة حرارة الجو. وهذه الظاهرة يجمع العلماء على تناميها في المئة عام الأخيرة فقط حيث زادت درجة كمية ثاني اكسيد الكربون بنسبة 25 بالمئة خلال القرن المنصرم وحيث زاد معدل درجات الحرارة بمقدار نصف درجة مئوية منذ الثورة الصناعية وكانت أكثر السنوات حرارة في الثمانينيات والتسعينيات مقارنة بمثيلاتها من القرن السابق.

أما تغير منسوب مياه البحر فتعاني منه معظم المدن العالمية التي تقع على سواحل البحار والأنهار مثل نيويورك ولوس انجلوس وميامي وريو دي جنيرو ولندن وباريس وامستردام وفينيسيا وبومبي والإسكندرية ودكا وشنغهاي وهونغ كونغ وسيدني. جميع هذه المدن وغيرها ستعاني من نقص مصادر الغذاء نتيجة الارتفاع المتزايد لمنسوب المياه نتيجة التسخين العالمي والفيضانات وذوبان كتل الجليد الهائلة في القطب الجنوبي. وما يزال الأمل بمكافحة التسخين العالمي بزراعة كميات هائلة من النباتات والمحافظة على الثروة الحرجية، حيث يمكن بزراعة مليون واحد مربع من امتصاص بليون طن من ثاني اكسيد الكربون، والترشيد في استهلاك الطاقة والوقود.

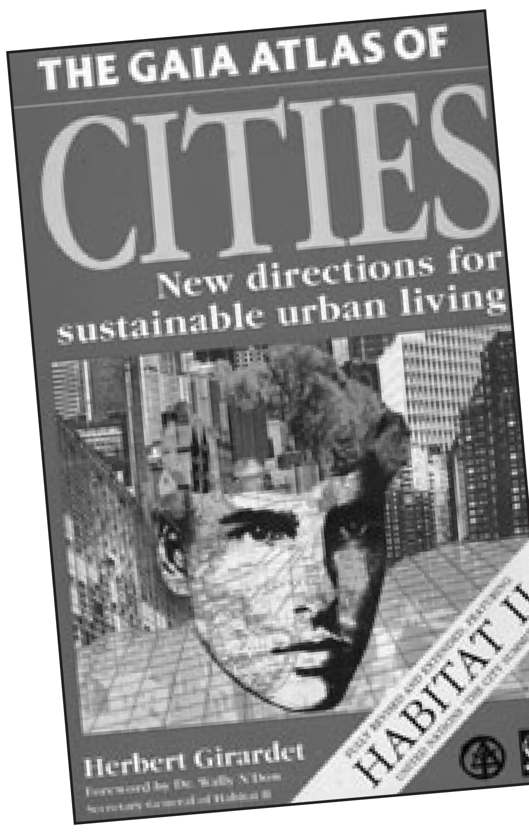

وهناك مناطق عالمية تعد مناطق منكوبة من ناحية بيئية وصحية وتقودها في هذا المضمار دول أوروبا الشرقية ودول الاتحاد السوفييتي السابقة، حيث تأثرت مباشرة بالتصنيع الذي عاث في بيئاتها فسادا دون اعتبار للنتائج. وتظهر الدراسات والإحصاءات الرسمية لحكومات هذه الدول شرق الأوروبية أن 16 بالمئة من مناطق الاتحاد السوفييتي السابقة هي مناطق منكوبة بيئيا. وتقدر التكلفة التي يتم صرفها لمكافحة التلوث بما يعادل 11 بالمئة من مجمل الدخل القومي لهذه الأقاليم. ويعد الهواء الملوث في 103 مدن من أوروبا الشرقية حيث يقطن أكثر من 50 مليون نسمة ملوثا بأكثر من 10 أضعاف النسبة المسموح بها حسب المعايير الصحية العالمية.

ويقل معدل عمر الفرد في المدن الصناعية في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وهنغاريا ورومانيا وألمانيا الشرقية بحوالي خمس سنوات عن نظيراتها في الدول نقية الهواء. ففي بولندا مثلا يزيد معدل أمراض الجهاز التنفسي في المناطق الصناعية بنسبة 155 بالمئة عن المناطق غير الصناعية، وتزيد إصابات السرطان بنسبة 30 بالمئة. وتتزايد أمراض مثل نقص المناعة العامة للجسم والقرحة والالتهابات والتشوهات الخلقية للأجنة وسرطان الرئة واللوكيميا وأمراض الدم. وتعد مدينة (Bitterfeld) في ألمانيا الشرقية الأسوأ في العالم الصناعي حيث مصانع الكيماويات والمواد الكيماوية القاتلة للحشرات ومصانع البلاستيك. كما أدت مصانع المدينة إلى تلوث النهر (Mulde) بحيث ماتت تماما جميع مظاهر الحياة البحرية فيه. وهذه المدينة كانت قمة المدن الألمانية الصناعية حيث وظفت مصانعها أكثر من 350 ألف عامل وشكل دخلها الصناعي لوحدها أكثر من 20 بالمائة من ناتج الدخل القومي لألمانيا الشرقية، لكنها بالنتيجة أصبحت «خرابة صناعية» لا تصلح فيها الحياة البشرية أو الحيوانية أو النباتية حيث أصبح تنفس الهواء فيها خطرا. وتم إقفال المصانع بها تماما اليوم.

كل هذا وغيره إنما هو من بعض المشكلات البيئية التي تتسبب بها يد المدنية الإنسانية فيما حولها من بيئة طبيعية مما قد يتجاوز مرحلة اللاعودة للإصلاح. وبهذا يكون الفساد الذي تقوم به يد الإنسان في المحيط من بر وبحر مما يعكس أحد مظاهر الآية الكريمة:» ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون». سورة الروم آية 41، فهل ينتهي الإنسان ويرجع عن غيه في تدميره المنهج للتوازن البيئي الدقيق لهذا الكوكب قبل فوات الأوان؟

---

* باحث في العمارة والتراث
مجموعة لونارد ودار معمار بلندن

تداعيات

يا أمير التلال: نحتاجك، نحتاجك

زياد خداش *

■ أنخفض حين يسقط أطفال غزة، أنخفض داخل انخفاضي، أتكوم داخل نفسي، أتداخل في بعضي و تفاصيل مكاني، ينفيني جسدي فلا أقدر على معرفة مكان أنفي أو ظهري او سريري او فنجان قهوتي، تنخفض غرفتي وطاقتي وكل الامكنة، والاشياء ولون الزهر، ورائحة الميرمية في الحديقة، وأصوات الطيور، تنخفض ظهور الآباء الفلسطينيين وهم يصحبون أطفالهم الاحياء صباحا الى الروضات، يندسون مسرعين في دفء سياراتهم، يهربون الى بيوتهم وسحابة من الاعتذار تجلل وجوههم في مرايا سياراتهم، تسحل الكتب عن الرفوف، أنزوي في قعر شعور عارم بأنقاض الاشياء، في منتصف الليل، مركز البرد، أسمع صوتك الوسيم، في قرص مدمج جديد أعده مؤخرا الجميل سمير جبران، مزيج شهي أنيق من قصائدك في امسيات متنوعة وقصائد مختلفة مع مزيج دافق من الحان متنوعة في امسيات متباعدة للاشقاء الثلاثة المبدعين، أتلظى وحدي في أتون موتنا الكثير، حين تحكي لنا عن الحب نرى وطننا، وحين تحكي عن الوطن، نشم رائحة حبيباتنا، مرايا تحدق في وجهها في مرايا مشغولة في تأمل مراياها، تدهشني حدودك المدمرة بين الوطن والوجود والمحبوبة حد الضياع والسؤال والغيبوبة، فأستنجد بارتفاعك، لأعثر على شكلي وحقيقتي وتناسق فوضاي المفقودة، لأتعلم كيف أسأل، وأشتم صحوي، وامارس سماء العجز عن الاجابة، ولأسمع صوت اطفال شعبي المذبوحين، آتيك وحدي بهدوء اللصوص الخجولين المثقفين يا محمود لأسرق قبضة من ريح تلتك، أنضج بها خبز ناري، في المساءات الباردة، الماطرة، آتيك هذه الايام، متلفعا بانخفاضاتي وانخفاضات البلاد، أخلعها عن جسدي وروحي، أكومها قرب وجهك، أقف عاريا وعاليا، أنتظر أن تنهض ركامات الغرف وتستوي انقاض الأسرة والأرائك والفنادق والمتنزهات، والكتب والمشاعر وألوان الزهور وروائح النباتات، والطيور وظهور الآباء. قريبا جدا من يديك، أجد شبح صديقي الخمسيني، الذي يأتيك سرا، هو الاخر، يتسلل اليك من بين شقوق الريح وكوى الضباب والأعين، ليقول لك ثلاث كلمات فقط: (صارت لي ابنة)، ثم يهبط درج تلتك مسرعا. ما بال الكل يهرع اليك ايها العالي مثل صوت بحر هذه الايام المنخفضة؟ آتيك انا في عز الموت، لأقول لك : صاروا 500 يا محمود، قصفوا مدرسة الفاخورة، هدموا بيت الشاعر عثمان حسين، ثم أعود فورا دون كلام آخر. أسمع (عابرون في كلام عابر) (وعلى هذه الارض ما يستحق الحياة)، (وانتظرها)، في كل مكان، في البيوت ومقاهي النت، والمؤسسات، والمدارس، والمقاهي، شعبك يبحث عنك، يشتاق اليك، ينتظرك، أتساءل– يتساءلون، ولا أسأم – نسأم من التساؤل عن سر رشاقتك اللغوية والوجودية والسحرية في التنقل الفني ما بين الملاحم العظمى الثلاث: الوطن، الوجود، الجسد، كأنك اعتقلت الدنيا بين دفتي عينيك، واختصرت بهاءها وألمها في عدة كلمات: (على هذه الارض ما يستحق الحياة،)، في هذه الجملة تعشش امرأة ووطن وسؤال الوجود، الوجود يقول على يديك للمرأة: أنا وطنك، يقول الوطن للوجود: أنا امرأتك، تقول المرأة للوطن: أنا وجودك. ألهذا أجيء اليك، بغزارة هذه الايام؟، لأبحث عن امرأتي ووجودي ووطني؟ أم لأسباب اخرى كالبحث عن أمان ما، حكمة، حل، زهو أفتقده، تحقق وجود، دفء، صوت يحتجز الشمس في نبرته، فيما يشبه اجتياح الغيوم لصيف آمن، سيفاجأ مؤقتا لكنه لن يندم، فيما بعد، أطياف قصائد كان يمكن ان تكتب الان، عبارة مفاجئة ساخرة مدهشة تبتكرها بمرحك المعذب اثناء مرورك في مدخل (فاتشي) لتعبر عن مأساة نرجس غزة.؟. في يوم آخر أجد حولك صديقي السبعيني، فدائي قديم، ينحني ويتلوى وجعا من آلام الحزام الناري الذي يشوي بطنه، ومع ذلك جاء اليك، يبحث في طاقة التلة عن تأويل شعري وانساني، ووجودي جديد منك لمجزرة أطفالنا الجديدة، ولحزام نار فلسطين أيضا، تأويل يشبه وسادة محشوة بالسحاب على تعبيرك أنت، تأويل يفيض عن ارتفاعك، ليسكت نار بطنه وأنياب أسئلته الكبرى: كيف تذهب بطولات الناس سدى؟ من أين الطريق الى حريتنا ونحن محاصرون بالفتاوى وبالاحتلال؟ كم من العمر بقي لأشهد انفجار الضوء، بعد طول أنفاق؟ أأذى عابر هو ما حدث لأطفال غزة؟، يبكي الفدائي – الطفل، وهو يغادرك هامسا لنفسه: هل أحسدك يا محمود لأنك لا تعرف ما الذي يجري للحمنا العفوي المبتدئ الان هناك؟. يوم آخر، صديقي العشريني يصطحب صديقته التي تعشقك، يقفان ذاهلين أمام قدرتك الفذة على: الانتشار في تلاميذنا ونبيذنا وجدراننا وشرفاتنا وتلالنا وقهوتنا وأغانينا ودموعنا وخبزنا وحدائقنا وشهدائنا، بنفس الحرارة والعذرية والقوة والتدفق والحيوية التي ينتشر فيها الله في حزن العالم؟. يا أمير تلالي وتلالنا، هذا انخفاضي وانخفاض فلسطين، فابتسم لنا نصا جديدا ليسيل علونا، عارما على شكل أمل وحب، وطفل.

كاتب من فلسطين
zkhadash@yahoo.com

يومية للحرب من خارج غزة

صلاح عواد *

(1)

من يشتق مصطلحا خارج سياق الدلالة القاموسية للمفردة، عليه أن يتحمل الدلالة التي يمنحها ذلك المصطلح، ويبدو أن مصطلح الإرهاب وما يعنيه من دلالة سياسية، واجتماعية، ونفسية، قد خرج من سياق اللغة وخرج أيضا من سياق واضعي المعنى الاصطلاحي للمفردة من الناحية السياسية على الأقل.

(2)

كشفت حرب إسرائيل على لبنان بحجة الحرب على حزب الله (المعادل للإرهاب) عن إشكالية كبيرة لمصطلح الإرهاب كما صاغته إدارة الرئيس جورج بوش بعد هجمات الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) الإرهابية.

ومن أجل الحرص على هذه الحرب المقدسة ضد الإرهاب، كما صاغها فريق من اليمين الطفولي الذي كان قطعا ينتمي إلى اليسار الطفولي، انساقت وراءها جل الأنظمة العربية والإسلامية، ودفعت أوروبا التي حرصت على الشك (مع ذلك اليمين الطفولي) إلى التعاطف مع ذلك اليمين الطفولي على مضض.

وإذا كانت الحرب على العراق قد احدثت ثغرات كبيرة في مصطلح الحرب على الإرهاب، غير أن صناع القرار في الإدارة الأمريكية سعوا بكل الوسائل إلى تلافي ذلك التفكيك بحجة أن العراق دولة، تملك أسلحة الدمار الشامل، وأنها دولة عدوة تهدد الأمن القومي لأمريكا.

وفي حرب عام 2003 اظهرت الأنظمة العربية عجزها الكامل عن اتخاذ أية مبادرة رغم أنها أقنعت وزير خارجية نظام صدام حسين (ناجي الحديثي) بأهمية وضرورة الاستجابة لقرار مجلس الأمن 1444(دعا الى عودة المفتشين الدوليين عن أسلحة الدمار الشامل في العراق) من أجل تجنب الحرب.

وفي حرب إسرائيل في صيف 2006 فقدت الأنظمة العربية زمام المبادرة كلّياً، وربما انتظرت الأنظمة المعتدلة مبادرة أنظمة الممانعة (حسب المصطلح الجديد الذي لا يعني أي شيء) لوقف تلك الحرب ولكن كما يبدو أن أنظمة الممانعة اصرت على الحرب. هذا الأمر دفع الأنظمة إلى التطير وإلى التسارع لاحتواء الأزمة التي فجرها حزب الله (الإرهابي) وفق التصنيف الأمريكي .

(3)

يتكرر نفس الأمر مع الحرب الدائرة في غزة ضد حماس (عنوانها الكبير) ولكن وفق الإعلام الأمريكي والإسرائيلي هي حرب ضد الإرهاب (حماس التي تستهدف السكان المدنيين في جنوب إسرائيل). وكما يبدو حرص النظام العربي السياسي الذي فقد أية مبادرة للسلم أو الحرب إلى المسارعة إلى التوجه إلى نيويورك لاحتواء الأزمة دون أن يمارس أية ورقة من أوراق الضغط سوى التهديد بانتكاسة النظام العربي الحليف لأمريكا. وحذر بعض الوزراء العرب من خطورة الداعية يوسف القرضاوي إذا لم يتم التصويت على مشروع قرار وقف إطلاق النار يوم الخميس (قبل الماضي) الذي يسبق صلاة الجمعة.

(4)

اسقطت حرب إسرائيل ضد لبنان مفهوم الإرهاب الأمريكي، بالرغم من تنظيرات اليمين الطفولي المتمثل بكارل روف، وضعت تلك الحرب النظام العربي في مأزق حقيقي لاحتواء الأزمة، ليس لخلاص لبنان وانما لانقاذ نظام فؤاد السنيورة. وادرك النظام العربي انه فاقد كليا للمبادرة، وان المبادرة الأساسية بيد حزب الله.

(5)

في حرب إسرائيل ضد حماس يتكرر نفس المشهد ولكن بتفاصيل أخرى، وخطورة تكرار المشهد تكمن في أن المبادرة بيد حماس وليس بيد السلطة الفلسطينية المتمثلة برئيس السلطة محمود عباس الذي بدا عاجزا إلى حد الموت، لكي يقبل بالمبادرة المصرية التي قضت على مبادرة وزراء الخارجية العرب. ويبدو كما هو حاصل الآن أن المبادرة ما زالت بيد حماس وهذا ما اعترف به الإسرائيليون الذين جعلوا من نفسهم ندا لحماس (المنظمة الإرهابية).

(6)

يبدو الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون الذي من الصعوبة قراءة ملامح وجهه وتعابير انفعالاته أنه يخضع لضغط أمريكي وإسرائيلي بعدم اللقاء مع قادة حماس. ولكنه كما يفيد أعضاء من مكتبه شخص جبان لأن الأمم المتحدة قد التقت بقطاع الطرق وأمراء الحرب في افغانستان وفي الصومال وفي أماكن أخرى، فما الذي يمنعه من اللقاء مع قادة حماس إذا أراد ترتيب وقف إطلاق النار.

(7)

ساهمت حرب إسرئيل على لبنان وعلى غزة بتفكيك مفهوم الإرهاب الاصطلاحي الذي شاعت له إدارة بوش، التي شاعت ربطه بالإسلام المتطرف، هذا المفهوم الذي غذته إسرائيل منذ قيام الثورة الإيرانية، والتي ما زالت تستفيد منه ، والتي صعدت من استغلاله إلى حد اللعنة في حربها في لبنان وفي حربها الراهنة في غزة.

(8)

وكما يبدو أن حرب غزة تفضي إلى خسارات كثيرة أولها خسارة الحرب ضد الإرهاب، وثانيها خسارة النظام العربي المتشظي والمنقسم على نفسه. وربما آخر خسارة تفرزها هذه الحرب، هي الأمم المتحدة كمنظمة دولية سنحت لها فرصة ترتيب الأمور، هي التي تملك رصيدا كبيرا من قرارات عدة سواء تلك التي صدرت عن الجمعية العامة، أو عن مجلس الأمن الدولي، تتيح لأمينها العام أن يتصرف كما يشاء لو أراد حقا لعب دور لوقف نزيف ما يجري، وهذا ما أدركه الأمين العام السابق كوفي انان في وقت متأخر من ولايته الثانية، عندما احتج على عدم شرعية الحرب الأمريكية على العراق .

(9)

بان كي مون الأمين العام للأمم المتحدة يزور ما يسمى بمدن إسرائيل (البلدات) الواقعة جنوبها، وعليه حسب نصيحة مستشاريه أن يزور غزة، ولكن من المحرم عليه أن يلتقي بقادة حماس ومن بينهم وزير الصحة الذي تستند اليه وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين (الانروا) في تقديم التقارير اليومية عن حجم الدمار، الذي احدثته آلة الدمار العسكرية في غزة.

لا أملك إلا الضحك مع زملائي من الصحافيين في مقر الأمم المتحدة من الأمين العام الذي لا يملك أية ملامح يمكن قراءتها، ونتساءل ساخرين لماذا تلتقي الأمم المتحدة مع قطاع الطرق ومع أمراء الحرب في الصومال والكونغو وفي أفغانستان وحتى مع مشعلي الحروب الطائفية في العراق؟ ... غريب أمر هذا الأمين العام الذي من المفترض أن يكون حياديا أن يستجيب لضغط دولة لا تملك أية شرعية في الأمم المتحدة، حارسة القانون الدولي ..؟؟

وبدا بان كي مون سيئا إلى حد يدعو إلى الضحك وهو يقول عليّ أن التقي مع القادة الفلسطينيين المعترف بهم دوليا .. انها نكتة خارج سماجة القانون الدولي والانساني ...

(10)

أضحك، وأبكي مع صديقي جو لوريا مراسل (البوسطن غلوب) والكاتب الدائم في صحيفة (صنداي تايمز)، وهو يذكرني بمقالة رائعة كتبها للصحيفة الانكليزية عن مبعوث اللجنة الرباعية رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، الذي لم يزر ولا مرة قطاع غزة منذ أن فرضت إسرائيل حصارها على القطاع.

ويقول ساخرا:

– من يكون بان كي مون أمام توني بلير؟

نحاول معا أن نجد معنى لهذه الحرب، نكتشف بعد أن نقرأ كل التصريحات التي صدرت عن قادة الأحزاب الإسرائيلية، أن الحرب هي نتاج شأن داخلي إسرائيلي، له علاقة بالانتخابات وبمن يفوز برئاسة منصب رئيس الوزراء في إسرائيل.

وندرك معا أن لا الضحك، ولا البكاء، ولا السخرية، يمكن أن تعوّض ما أحدثته آلة الدمار الإسرائيلية. ويقول لي بحزن «ان ما يحدث يشبه ما ارتكبه الألمان النازيون أثناء الحرب العالمية الثانية». وأحاول أن أبعد شبح تهمة معاداة السامية وأقول له «عليك أن تقرأ الأسفار الخمسة المنسوبة إلى النبي موسى».

(11)

أكتشف أن مكتب الأمين العام للأمم المتحدة لديه معلومات عن عدد القتلى من مقاتلي حماس، وعن عدد القتلى داخل صفوف الجيش الإسرائيلي، وأكتشف أيضا أن ثمة انقساما داخل الأمم المتحدة إزاء الأمين العام بان كي مون، الذي لا زال يتصرف بطريقة تنم عن قدر كبير من البيروقراطية. وأعرف جيدا أن اغلبية الأعضاء في مكتبه حذروه من الانحياز وراء السلطة الفلسطينية التي لا تملك أي وجود في قطاع غزة، في الوقت الذي يسعى فيه إلى ترتيب شروط وقف إطلاق النار.

(12)

– هل يمكن أن يدعي الأمين العام بان كي مون نجاح مبادرته بوقف إطلاق النار؟

– آمل أن لا يكون الأمر هكذا.

– هل سيلتقي بقادة حماس أثناء زيارته؟

– أعلم أن الإسرائيليين حذروه بعدم اللقاء بقادة حماس.

– كيف سيتم ترتيب وقف إطلاق النار وتأمين وصول المساعدات الإنسانية إلى سكان غزة؟

– يمكنك أن تسأل الأمم المتحدة ووكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين.

هذا حوار دار بيني وبين مراسل وكالة الأنباء الفرنسية لدى الأمم المتحدة بعد وقف إطلاق النار.

(13)

كان علي أن ألتقي بصديقي جو لوريا القارئ النهم، ليقول لي أن حرب إسرائيل ضد غزة من أخطر الحروب التي خاضتها إسرائيل بعد حرب لبنان.

نيويورك / 19 كانون الثاني (يناير) 2009

* شاعر من العراق يقيم في نيويورك